عبدالنبي اصطيف

تقييم الإنجازات .. الإبداعية

كثيراً ما نردد بيننا وبين أنفسنا مثَلاً نعزي به هذه الأنفس، عما تلقاه من زهد فيما تأتيه من خير لغيرها: (زامر الحي لا يطرب)، و(أزهد الناس في العالم أهله وجيرانه)، وعلى الرغم من تنوع صياغات المثَل، فإنها كلها تفصح عن استخفاف بالقريب المتاح، لمجرد أنه قريب المتناول، متاح ميسور، لا يتطلب فيما يبدو جهداً كبيراً من أجل تحصيله، مثلما تشي بزهدٍ بما يملكه المرء لمجرد أنه في حوزته.

والمفارقة أننا سرعان ما نغير رأينا فيه، ونمضي من النقيض إلى النقيض في تقويمنا له، بمجرد أن يترامى إلى سمعنا تقدير الأجانب الآخرين له. قد نسمي ذلك عقدة الشعور بالنقص، وقد نردّها إلى انعدام الثقة بالنفس، أو عقدة/تقليعة تبجيل الأجنبي، أو الإفرنجي، لأنه مختلف وغريب، ومن ثم فإنه عجيب مثير للانتباه. ولكن الأمر في الحقيقة مدعاة للتأمل، وباعث على التنبيه، ومحفز على تغيير نظرة المرء لنفسه، ولمن حوله في مجتمعه ووطنه وأمته، ليعطي كل ذي حق حقه، ولا يبخس الناس أشياءهم وإنجازاتهم.

وإذا ما رغب المرء في تذكير القارئ بأمثلة صارخة على هذا السلوك الغريب، من جانب بعض دارسي التراث العربي، فإنه يمكن أن يشير إلى ترجمة (أبي بشر متى بن يونس)، لكتاب (فن الشعر) لأرسطو، في مطلع القرن العاشر الميلادي، وإلى النقد الجارح الذي كوفئ به من معاصريه، وممن تابعهم لاحقاً حتى القرن العشرين. فقد أنكر القوم عليه قيامه بترجمة الكتاب عن لغة وسيطة، وطعنوا في دقة ترجمته استناداً إلى جهله باليونانية من جهة، وبالأدب اليوناني، ولا سيما المسرح اليوناني من جهة أخرى، وسخروا من ترجمته للمأساة بالمديح، وللملهاة بالهجاء، فضلاً على اتسام ترجمته بالحرفية الشديدة. ولكن الغرب أنصفه باعتماده على هذه الترجمة في تحقيق كتاب (فن الشعر) عام (٢٠١٢م)، تحقيقاً علمياً دقيقاً، وذلك استناداً إلى ترجمته الحرفية تلك، وإلى عدد من الشواهد العربية، واليونانية، واللاتينية، وأقرّ بفضله بالحفاظ على النقد الأدبي الغربي.

ويمكن أن يذكّر المرء بترجمة عبدالله بن المقفع لكتاب (كليلة ودمنة)، عن اللغة الفارسية الوسطى أو البهلوية، وإلى استناد الدارسين الغربيين والشرقيين إلى ترجمته المنقحة والمزيدة، في استرجاع نسخة (الأسفار الخمسة) المفقودة، المنسوبة لـ(فيشنو شارما)، ونسخة (برزويه) للنص السنسكريتي، المفقودة أيضاً، التي ترجمت إلى أكثر من أربعين لغة، وجابت أركان الكرة الأرضية متجاوزة اختلاف اللغات، والثقافات، والبلدان، والعصور، وبقي لنا منها أكثر من (١٤٠) مخطوطة في عدد كبير من اللغات، دون أن تظفر بتحقيق علمي دقيق من جانب الباحثين العرب، الذين شهدوا تحوّل الكتاب إلى رائعة

لدينا أمثلة عديدة تفصح عن الاستخفاف بالقريب وما في جعبته

كونية لا نظير لها في تاريخ الأدب العالمي، ولم تدفعهم مركزيته في متن هذا الأدب إلى تحقيقه التحقيق اللائق، أو إلى دراسته الدراسة التي تفي بأهمية دوره في التعارف بين الأمم والشعوب، التي تفاعل أدباؤها ومترجموها ودارسو الأدب منها، مع هذا الكتاب بعد أن عرفوا قدره ومنزلته، وعمدوا مؤخّراً إلى تحقيقه، وإخراج طبعة محققة تحقيقاً علمياً دقيقاً، مشفوعاً بترجمة عالية إلى الإنجليزية، ظهرت في سلسلة (مكتبة الأدب العربي)، التي تصدر عن مطبعة جامعة ولاية نيويورك. وأكثر من هذا؛ فإن هؤلاء الأجانب قد جعلوه موضوعاً لمشروع علمي طموح، تقوم عليه ثلة من علماء العربية من الغربيين والعرب المقيمين في الغرب، وتحتضنه جامعة برلين الحرة، وتديره المستشرقة المتألقة (بياتريس غروندلر)، ويحمل عنوان (أثر كلاسيكي مجهول)، ويعمل على جمع مخطوطاته المنتشرة في مختلف أنحاء المعمورة، وإعداد نسخة علمية منه، ودراسة وجوه تفاعله مع مختلف آداب العالم وفنونه وثقافاته.

وكما تقدم، فعلينا ألا ننسى في هذا المقام أن ترجمة ابن المقفع، كانت الأساس الذي اعتُمد في استرجاع نسخة الأسفار الخمسة المفقودة، وكذلك استعادة ترجمة (برزويه) لها، بوصفهما أثرين من أهم ميراثي الأدبين الهندي والفارسي. ويمكن أن يذكّر المرء في هذا السياق، بزهد الدارسين العرب الحديثين بـ(التلخيص الوسيط) لابن رشد، الذي شرح فيه كتاب (فن الشعر) لأرسطو، واعتمد فيه على ترجمة متى بن يونس، وعلى كتابات النقاد والفلاسفة المسلمين والعرب، من أمثال: الفارابي، وقدامة بن جعفر، وابن سينا، وغيرهم.. ولحقه ما لحق مترجم الكتاب من استخفاف بعمله، وتعييره بجهله باللغة اليونانية، والأدب اليوناني، وتقريعه غير اللائق على سوء فهمه للنص المترجم، مع أن هذا التلخيص/الشرح لكتاب المعلم الأول، بقي محط اهتمام الدارسين الغربيين وعنايتهم، منذ أن ترجم في القرن الثالث عشر الميلادي على يد الراهب الألماني (هرمانوس)، وغدا الأساس الذي قام عليه النقد الأدبي الأوروبي في عصر النهضة وعصر التنوير، ولايزال يعدّ مرجعاً في تاريخ هذا النقد حتى يومنا هذا.

وإذا ما غادر المرء العصور الوسطى وعصر النهضة إلى مطلع العصر الحديث، إلى القرن الثامن عشر، فإنه يمكن أن يتوقف عند حفاوة الغرب بكتاب (ألف ليلة وليلة)، هذا الكتاب الذي لا يظل كتاباً هامشياً في الثقافة العربية القديمة والحديثة. وينوّه بتنبه المستشرق الفرنسي (أنطوان غالان) له، وترجمته إلى الفرنسية، التي انتشر من خلالها إلى معظم لغات العالم، وغدا درّة من درر الأدب العالمي، لا ينازعه في منزلته غير كتاب (كليلة ودمنة)، وهكذا صحا العرب على أهميته وحفاوة القاصي والداني به، فعمد الباحث العربي المرموق (محسن مهدي) إلى تحقيقه وإصدار نسخة عربية محققة منه، غدت منطلقاً لترجمات حديثة حلت محل ترجمات المستشرقين القديمة، والدراسات مقارنة تبرز دوره في مختلف آداب العالم وثقافاته.

وتجدد اهتمامهم به وبأصوله حديثاً، عندما اكتشف الباحثون الغربيون الدور الذي أداه (حنا دياب)، في إغناء قصص (الليالي العربية)، عندما زوّدَ المترجم الفرنسي بباقة من أشهر قصصه، مما دعي فيما بعد بالحكايات اليتيمة، وبخاصة حكايتي (علي بابا والأربعين لصاً، ومصباح علاء الدين)، ولكنهم ظلوا عالة على الأجانب في عنايتهم برحلة حنا دياب إلى باريس، التي ترجمت مؤخراً إلى الفرنسية والألمانية والإنجليزية، وصدرت محقّقة في سلسلة (مكتبة الأدب العربي) في مجلدين مشفوعين، بعدد من الدراسات التي تكشف عن إسهام القاص الحلبي في هذه الرائعة.

ومعنى هذا؛ أن علينا أن نكف عن تعزية أنفسنا بالمثل الذي يُسوِّغ لنا بخس حق (زامر الحي)، وأن نقيّم الإنجازات الإنسانية بالعدل والقسطاس المستقيم، وأن نعطي في تدبّرنا لتراثنا، لكل ذي حق حقه من التقدير والاهتمام، وألا ننتظر رأي الأجنبي فيه حتى نرفع من قدره، فلا محبة تعدل محبة الأسرة لأبنائها، ولا عزّ يعدل عزّ الوطن لأولاده، ولا مكانة لمبدع يعتدّ بها إن لم يكن مصدرها أمته.

ظاهرة التحول إلى النقيض لمجرد أن يترامى لمسمعنا تقدير الأجانب لأمرنا

تعرض (متى بن يونس) للانتقاد في ترجمته (فن الشعر) لأرسطو ثم أقر بفضله مؤخراً

وهو ما ينطبق على ترجمات عديدة مثل (كليلة ودمنة) و(الأسفار الخمسة) و(التلخيص الوسيط)

لابد أن نقيم الإبداع بالعدل والقسطاط المستقيم ونعطي كل ذي حق حقه